المديح في شعر البربر العربي في المغرب والأندلس

أ.م.د.أنوار مجيد سرحان
جامعة بغداد/ كلية الآداب
d.anwaralsodani@yahoo.com

إخلاص خالد عبد
جامعة بغداد/ كلية الآداب
flkhaldrafeal@gmail.com

الملخص:

كان الشعر وما يزالُ المعبِّر الحقّ عن مكامن النفس الإنسانية، وطبيعتها وعلاقاتها بمَنْ حولها، لذا كان من البديهيِّ أنْ يكون الشعر حاضراً دومًا في مختلف المواقف التي سجَّلها المجتمع، فالأدب يقدِّم صورًا تعكس إحساس الإنسان بذاته ومجتمعه وبيئته.

ونحا شعراء البربر منحى الشعراءِ العرب في طَرْقِ الموضوعات المألوفة بالشعر العربي، وعلى الرغم من أنَّهم تعلموا اللغة العربية فيما بعد وتعايشوا معها، فلا نجدُ اختلافًا كبيرًا لما جُبِلَ عليه العربيُّ مِنْ تقاليدَ وعاداتٍ عن الذي ساروا عليه عندما تعايشوا مع العرب، ولكنَّ الاختلافَ يكمنُ في شعر كل واحد منهم، وسيكون تناول تلك الأغراض اعتمادًا على أكثرها ورودًا في أشعارهم التي تمثّلت في المدح والغزل والرثاء والوصف، ومن هذه الأغراض المديح.

البحث مستلّ من أطروحة دكتوراه للباحثة إخلاص خالد عبد سيد، بعنوان (شعر البربر العربي في المغرب والأندلس (جمع ودراسة).

الكلمات المفتاحيّة/ المديح، المديح النبوي، شعر البربر العربي، المغرب والأندلس.

Abstract;

Poetry was and still is the true expression of the human soul, its nature and its relationships with those around it. Therefore, it was obvious that poetry was always present in the various situations recorded by society. Literature presents images that reflect a person's sense of himself, his society and his environment.

The Berber poets followed the path of the Arab poets in the ways of topics familiar to Arab poetry, and although they learned the Arabic language later and coexisted with it, we do not find a big difference in the traditions and customs that the Arabs were accustomed to from what they walked when they coexisted with the Arabs, but the difference lies in the

poetry of Each one of them, and dealing with these purposes will be based on the most mentioned in their poems, which were represented in praise, spinning, lamentation, and description, and among these purposes is praise.
Keywords/ praise, prophetic praise, Arab Berber poetry, Morocco and Andalusia.

المقدّمة

المديح غرض معروف في الشعر العربي منذ القدم، وهو فنّ الثناء والإكبار والاحترام ووصف الجوانب المشرقة في الممدوح على اختلاف مستوياته وأوضاعه بالصفات الحميدة الطيبة والمزايا الرفيعة والأخلاق السامية التي يتصف بها، فيمدح عليها (الزمخشري،١٩٧٩ :٥٨٥، والدهان، ١٩٦٨:٥)، وهناك مدائح في الحكّام مثل الملوك والأمراء والسلاطين، وغير الحكّام مثل: الأدباء والعلماء، فالمديح يمثّل تعاطف الشاعر وميوله وإعجابه نحو شخصية الممدوح؛ فيظهر صفات الكرم والشجاعة والعدل والعفة...وغيرها من الصفات الحميدة؛ لذلك نجد شخصية الشاعر تختفي وتظهر شخصية الممدوح، ونجد هذا الغرض يشكل النسبة الأكبر من شعر البربر العربي، حتى أنه شكّل نسبة كبيرة من دواوين الشعراء، والشعراء الذين جمعت شعرهم، وأنهم عنوا بهذا الغرض عناية كبيرة؛ لأن بعضهم أراد التقرب من السلطان فمدحه، والبعض الآخر من شدة تعلقه بالعلم، يقدس العلماء ويمدحهم، والنوع الثالث هو شعر المولديات الذي شاع واشتهر في المغرب والأندلس، وأصبح الغرض الأكثر شيوعاً، ولا يوجد شاعر في تلك المرحلة لم ينظم شعراً في هذا الغرض، ويرجع السبب إلى اهتمام الملوك أنفسهم به؛ لأنهم جاؤوا فاتحين للمغرب والأندلس وناشرين الدين الإسلامي، ولم يختلف شعراء المغرب عن شعراء المشرق في غرض المدح، وقد أجادوا به وحافظوا على الأسلوب القديم في هذا الغرض حتى شمل عندهم الاستهلال أو المقدمة الطللية أو الغزلية وحسن التخلص والخاتمة، ولا سيما في شعر المدح النبوي، وقد نظم المدائح كبار شعراء البربر منهم: ابن حمو الزياني، وعباس بن فرناس وغيرهم... وقد خرج معظم شعرهم في المديح، وكان بعض الشعراء محبين للمال لهذا يمدحون الأمراء للحصول على مكافأة مالية؛ أي يتّخذون شعر المدح وسيلة للتكسب (بدوي، ١٧٩:١٩٩٦)، ومنهم:_ عباس بن فرناس البربري. وقد شغلت قصائد المدح جزءاً كبيراً من شعر البربر العربي وتمثّل بالآتي:

- المدح النبوي الشريف (المولديّات)، ومدح الحكّام، ومدح العلماء والأدباء والأقرباء، ومدح المدن.

١- المدح النبوي الشريف (المولديّات)

ظهر شعر المدح النبوي أو شعر المولديّات في الشعر العربي، ولا يمكن معرفة تاريخ نشأته، لكنه ارتبط بتاريخ بداية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف الذي شاع في المشرق، ثم انتقل إلى بلاد المغرب والأندلس، لكن بوقت متأخر نسبياً؛ لأن بلاد المغرب العربي الممتدة من حدود مصر الغربية إلى الأندلس لم تصبح جزءاً من دار الإسلام إلا في زمن متأخر؛ فالمغرب فتحت سنة (٧٠هـ) والأندلس بعده بـ(٢٠ سنة)، ومنذ ذلك الوقت بدأ ينتشر الدين الإسلامي واللغة العربية، وبعد ذلك تطورت الثقافة واتسعت، وظهر شعر المولديّات وارتبط ارتباطاً وثيقاً بالاحتفالات الرسمية التي كان ينظمها الملوك في كل سنة بمناسبة ليلة المولد النبوي الشريف الذي ابتدأ في أوائل القرن السابع الهجري، حتى أصبح في القرن الثامن الهجري عيداً رسمياً (مبارك، د.ت: ١١٩-١٢٠، وعمران، ١٤٢٨هـ: ١٠١)، ويمكن تعريفه بأنّه فنّ من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، وهي لون من التعبير عن العواطف الدينيّة، ومن الأدب الرفيع الذي يصدر من قلوب صادقة ومخلصة؛ لأنّ هذا الفنّ يصف شخصية الرسول (صلّى الله عليه وآله)التي اجتذبت قلوب المسلمين وغيرهم ليمدحوه لعظمتها وسموها، ويعدّ هذا الغرض من أهمّ أغراض الشعر العربي بصورة عامّة، والشعر البربري العربي بصورة خاصّة؛ لأنّه يظهر حبّ الشعراء للرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله)، فيمدحونه بأرقى المعاني، وأنقى الكلمات، وأصدق المشاعر؛ لأنّه شعر صادق لا يخالطه رياء ولا يشوبه ريب(مبارك، د.ت: ص١٧، وعمران، ١٤٢٨هـ: ٧٨)، وكانت قصيدة المديح النَّبوي ظاهرة أدبية متميّزة شكلاً ومضموناً عرف بها الأندلس والمغرب الإسلامي، فأصبحت لدى شعرائها دواوين تضمّ عدداً جمّاً من القصائد والمقطّعات والمخمّسات تدور كلّها حول المدائح النبويّة في شعر شعراء البربر العربي، ومنها ما ظهر فيها الوجد والتصوّف وكثر فيها التذلّل، ومناجاة الحبيب والتحسّر على ما فات، وتتضمّن القصيدة المولديّة عناصر رئيسة يغلب حضورها في أغلب المولديّات وهي (المقدمة ومدح النبي (صلّى الله عليه وآله)، ومدح السلطان، والتوسّل أو المناجاة، وطلب الشفاعة والخاتمة)، وهناك نوع آخر وهو الاستفتاح بالقصيدة المولديّة بمدح الرسول(صلّى الله عليه وآله) مباشرة، من دون ذكر المقدمات.

قال ابن العريف الصنهاجي(ت٥٣٦هـ) ـقصيدة ارتبطت بالتصوف، وبلغت (٣١ بيتاً)، ذكر فيها صفات النبي(صلّى الله عليه وآله)، والصلاة عليه، ومطلعها: (سيد،٢٠٢١: ١٩٠-١٩١) (من الكامل)

صــلّى الإلـــهُ عـلـــى النبـــيّ الهــادي ... مــــــا لاذت الأرواحُ بالأجســـــادِ

صـــلّى عليـــهِ اللّـــه مــا اســودَّ الــدجى ... فَكَسَـــا محيّـــا الأفـــق بُـــرْدَ حِـــدادِ

صــــلّى عليــــهِ اللهُ مــــا انــــبلج الســـــنا　　　فـــابيضَّ وجــــهُ الأرض بعــــد ســـــوادِ
صــــلّى عليــــهِ اللهُ مــــا همــــع الحيــــا　　　فســــقى الـــــبلادَ بــــرائحٍ أو غــــادي
صــــلّى عليــــهِ الله مــــا هَفَــــتِ الصَّــــبا　　　وشــــدا علــــى فــــتنِ الأراكــــةِ شــــادي
....　　　..
صــــلّى عليــــهِ مَــــنْ كســــاه عوارفــــاً　　　واختصــــهُ منــــهُ بخيــــرِ أيــــادِ

ويكثر مديح النبي محمداً(صلّى الله عليه وآله) في شعر ميمون الخطابي الصنهاجي (ت٦٣٧هـ)، بقصيدته الفريدة التي تسمى بالميمونيّة (اليائيّة) التي بلغت (١٥٠ بيتاً)، يعدّد معجزات النبي (صلّى الله عليه وآله)، ويكرّر فضائله، فهو الشفيع، والكريم، والهادي، وبه يتقرّب الخلق من الخالق؛ لأنّ الخالق فضّله على خلقه، فأحبّه الخلق جميعهم، وأصبح وسيلتهم لمناجاة خالقهم، ويقول في مطلعها: (سيد،٢٠٢١: ٤٥٧)　　　(من الطويل)

حقيــــقٌ علينــــا أن نجيــــبَ المعاليــــا　　　لنفنــــيَ فــــي مــــدحِ الحبيــــبِ المعانيــــا
ونجمــــعَ أشــــتاتَ الأعــــاريضِ حســــبةً　　　ونحشــــدَ فــــي ذات الإلــــهِ القوافيــــا
ونقتــــد للأشــــعارِ كــــلَّ كتيبــــةٍ　　　لنصرِ الهــــدى والــــدينِ تــــردى الأعاديــــا
فألســــنُ أربــــابِ البيــــانِ صــــوارمٌ　　　مضــــاربُها تُنســــي الســــيوفَ المواضــــيا
لنطلــــعَ مــــنْ أمــــداحِ أحمــــدَ أنجمًــــا　　　تلــــوحُ فتجلــــو مــــنْ ســــناهُ الــــدياجيا
كواكــــبُ إيمــــانٍ تنيــــرُ فيهتــــدي　　　بأضــــوائها مَــــنْ بــــاتَ للحــــقِّ ســــاريا
ســــهوتُ بمــــدحِ الخلــــق دهــــراً فهــــذهِ　　　سجودي لجبري كــــلَّ مــــا قلــــتُ ســــاهيا
فــــلا مــــدحَ إلّــــا للــــذي بمديحِــــهِ　　　تطيــــعُ إذا مــــا كنــــتَ بالمــــدحِ عاصــــيا
رســــولٌ بــــراهُ اللهُ مــــن صــــفوِ نــــورهِ　　　وألبســــهُ بــــردًا مــــنَ النــــورِ صــــافيا

ثم يختم الشاعر قصيدته بالصلاة والسلام على النبي محمد (صلّى الله عليه وآله)؛ لأنّه آخر شيء يختم به سمع المتلقي، أو جعل الشاعر الصلاة على النبي (صلّى الله عليه وآله) مسك ختام المدح بخير الكلام، بقوله: (سيد،٤٦٣:٢٠٢١)

عليــــهِ ســــلامُ اللهِ لا زال رائحــــاً　　　عليــــهِ مــــدَى الأيــــامِ حقّــــاً وغاديــــا

إنّ الاحتفال بالمولد النَّبوي الشريف ازدهر في العهد المريني والموحدي، إذ أصبح الملوك أنفسهم يرأسون المهرجانات التي تقام ليلة المولد النَّبوي، حتى أنّ آخر ملوك الموحدين عمر المرتضى (ت٦٦٥هـ) كان يحيي الليلة ويحتفل بالمولد النَّبوي، فقد تزهّد وتصوّف، وصار ينظم

في الموالد، وله مقطوعة في الجانب النبوي الكريم، خالية من المقدّمات الافتتاحية، ويختمها بالصلاة على النبي محمد (صلّى الله عليه وآله)، يقول فيها: (سيد،٢٠٢١: ٣٢٦-٣٢٧)
(من الكامل)

وافـــى ربيـــعٌ قَـــدْ تعطـــرَ نفحُـــهُ — أذكـــى مِـــنَ المســـكِ العتيـــق نســـيمَا

بـــولادةِ المختـــارِ أحمـــدَ قَـــدْ بـــدا — يزهـــو بِـــهِ فخـــراً وحـــازَ عظيمَـــا

بشـــرى بشـــهرٍ فيـــهِ مولـــدُهُ الـــذي — مَـــلأ الزمـــانَ عـــلاؤُهُ تعظيمَـــا

ضـــاءتْ بِـــهِ شـــرقُ الـــبلادِ وغربُهَـــا — وتألقـــتْ أرجاؤُهَـــا تنعيمَـــا

فـــاعتزَّ أمـــرُ اللهِ يـــومَ طلوعِـــهِ — وغـــدَا بِـــهِ ديـــنُ الإلـــهِ قويمَـــا

فـــاعرفْ لهـــذا الشـــهرِ حقّـــاً قـــدرَهُ — فلقـــدْ غـــدَا بـــينَ الشـــهورِ كريمَـــا

شـــهرٌ كـــريمٌ جـــاءَ فيـــهِ محمـــدٌ — صـــلُّوا عليـــهِ وســـلِّمُوا تســـليمَا

وقد امتدح ابن جابر الغساني المكناسي (ت٨٢٧هـ) في نظمه مخمّساً لبيتي ابن الخطيب، متشوّقًا إلى ضريح خير الأنام الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله)، ومطلع المخمّس قوله: (سيد،٢٠٢١: ٤١٤) (من الكامل)

يـــا ســـائراً لضـــريحِ خيـــرِ العـــالمِ — ينهـــى إليـــهِ مقـــامُ صـــبٍّ هـــائمِ

بـــاللهِ نـــادِ وقـــلْ مقالـــةَ عـــالمٍ — (يـــا مصـــطفا مِـــنْ قبـــل نشـــأةِ آدمِ

والكـــونُ لـــم تفـــتحْ لـــهُ أغـــلاقُ)

بِثَنَـــاكَ قـــد شَـــهدتْ ملائكـــةُ السَّـــمَا — واللهِ قـــدْ صـــلّا عليـــكَ وســـلَّمَا

يـــا مجتبـــاً ومعظمـــاً ومكرمَـــاً — (أيـــرومُ مخلـــوقٌ ثنـــاءَكَ بعـــدَمَا

أثنـــى علـــى أخلاقِـــكَ الخَلَّـــاقُ)

وقول المزوار المكناسي(١٣١٠هـ) في ميلادية عام ١٣٠١هـ، تبلغ(٣٤ بيتاً) ومن خطّه نقلت، خالية من المقدّمات، يذكر فيها معجزة الرسول(صلّى الله عليه وآله)، وصفاته ومنزلته عند الله تعالى، وهو الشفيع الذي تستغيث به الناس، ويذكر الاحتفال بمولده الشريف في كلّ سنة، يقول في مطلعها: (سيد،٢٠٢١: ٢١٧-٢١٩) (من البسيط)

نـــورُ الســـعودِ بَـــدَا أم نـــورُ تجديـــدِ — عـــمَّ الـــبلادَ بعـــزٍّ منـــهُ ممـــدودِ؟

أم هـــذهِ نفحـــةٌ جـــاءَ البشـــيرُ بهـــا — مِنْ نحـوِ ليلـى بوصـلٍ غيـرِ محـدودِ؟

.... — ....

مَـــنْ خَصَّــــهُ اللهُ بـــالقرآنِ معجـــزةً ... تبقـــى فـــلا تنقضـــي بقـــاءَ تخليـــدِ
فهـــو الشـــفيعُ الرضـــا والمســـتغاثُ بـــهِ ... إنْ أحجـــمَ الشـــفعاءُ يـــومَ موعـــودِ
أعلـــى البريـــةَ عنـــدَ اللهِ منزلـــةً ... ومَـــنْ أتانـــا بإيمـــانٍ وتوحيـــدِ
كـــم آيـــةٍ ظهـــرَتْ فـــي حـــينِ مولـــدِهِ ... ميمـــونَ مِـــنْ غيـــرِ تكييـــفٍ وتحديـــدِ
فـــي ليلـــةٍ أكـــرمَ اللهُ الوجـــودَ بهـــا ... عَلَـــتْ علـــى القـــدرِ قـــدراً دونَ تفنيـــدِ
مِـــنْ أجـــلِ ذلـــكَ مولانـــا وســـيدُنا ... يُجَـــدِّدُ الخيـــرَ فيهـــا أيَّ تجديـــدِ
يُحيـــي ســـوائِعَهَا فـــي كـــلِّ مَـــا ســـنةٍ ... تبـــدو بمـــدحٍ وتحميـــدٍ وتمجيـــدِ
سَـــنَّتْ ســـيادتُهُ عيـــداً لمقـــدمِها ... ناهيـــكَ مِـــنْ شِـــيَمٍ ناهيـــكَ مِـــنْ عيـــدِ

ويختمها بالصلاة على النبي (صلّى الله عليه وآله) خير البشر: (سيد،٢٠٢١:٢١٧-٢١٩)

دامـــتْ عليـــهِ صـــلاةُ اللهِ مـــا طَلُعَـــتْ ... أنـــوارُ ســـعدٍ لمولانـــا بتمهيـــدِ

أمّا القصائد التي تحتوي على مقدّمات فهي قليله مقارنةً مع القصائد الخالية من المقدّمات؛ لأنّ الشعراء البربر يحتفلون بالمولد النَّبوي الشريف على تقاليد، وغاية في البهجة والجلال، وكانوا يتبارون في الحفاوة به، والافتنان في شؤونه، وهذا ما جعل مظاهره وتقاليده متجدّدة (السنودي، ١٩٤٨م: ٢٣١)، ومن افتتاحيّات المولديّات الرائعة التي بلغت(٤٣ بيتاً) يقول عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي (ت٨٠٧هـ)، في قصيدته (٢٤ بيتاً) التي بدأت بمقدّمة وصفيّة يصف فيها الدهر ويشتكي منه، ويذكر الحكمة من الدهر بهذه الأبيات التي جاء فيها، بقوله: (سيد،٢٠٢١: ٢٥٢-٢٥٣) (من الرجز)

وأشـــتكي دهـــراً دهـــاني صَـــرْفُه ... لمّـــا قضـــى بـــالبينِ فيمـــا قـــد قضـــى
منـــازلٌ كانـــتْ بنـــا أواهـــلاً ... نِلنـــا بهـــا حينـــاً أســـاليبَ المُنـــى
كـــم بِـــتُّ فـــي أفيائهـــا أجـــري إلـــى ... غاياتهـــا بطـــرفِ جـــدٍّ مـــا كَبـــا
وكـــم سَـــحَبتُ، إذ صَـــحبت غِيـــدَها ... بِرَوْضِـــها، ذَيـــلَ الســـرورِ والهنـــا
وكـــم لثمـــتُ زَهْـــرَ ثَغْـــرٍ أشـــنبٍ ... مـــن شـــادنٍ عَـــذْبِ الثنايـــا واللَّمـــى
وكـــم رَشَـــفْتُ مـــن رُضـــابٍ سَلسَـــلٍ ... يفعـــلُ بالألبـــابِ أفعـــالَ الطّـــلا
أيـــامَ أزهـــارُ المُنـــى مُونقـــةٌ ... والـــدهرُ ذو وجـــهٍ مُنيـــرٍ مُجْتلـــى

يـــا ليـــتَ شِـــعري، والأمـــاني خُـــدَعٌ ... هـــل يَرْجِــعُ الـــدهرُ لنـــا عهـــداً مضـــى؟
وهـــل لنـــا مـــن عَـــودةٍ لمعهـــدٍ؟ ... صَـــبَوْتُ فيـــه جُـــلّ أيـــامِ الصِّـــبا

وبعدها يذكر النبي(صلّى الله عليه وآله) ويمدحه، ويصرح بقوله إنّه ليس لديه ذخر غير مدحته للنبي(صلّى الله عليه وآله) سيد أهل الأرض والسماء، وبالنبي(صلّى الله عليه وآله) يتقرّب من الله؛ لأنّه شفيع الأمم بقوله: (سيد،٢٥٣:٢٠٢١) (من الرجز)

ولـــيس ذُخْـــري غيـــرَ مـــدحِ أحمـــدٍ ... ســـيّدِ أهـــلِ الأرضِ طُـــرّاً والســـما
علـــى امتـــداحِ المُصـــطفى خيـــر الـــورى ... مقصـــورةٌ، لكنهـــا مقصـــورةٌ

وبعد، شكّلت الأمداح النبويّة (المولديّات) ظاهرة بارزة تحسب لبعض شعراء البربر؛ بسبب تمسّكهم بالدين الإسلامي، وهذا ما جعل الشعور الديني عميقًا لدى الشعراء، حتى خلدت تلك الظاهرة في تاريخهم الذي كان أحد روابط المسلمين، ومفخرة لهم في حملهم للدين الإسلامي لكونهم فاتحين وناشرين له، ويتضح إحساسهم بالانتماء للمشرق الذي يحتضن الديار المقدسة التي ذكرها شعراؤهم، فضلا عن صدق تعبيرهم ومناجاتهم والتوسّل إلى الله بنبيّه(صلّى الله عليه وآله)، قاصدين رضا الله تعالى.

٢- مدح الحكّام

سار شعراء البربر على الاتجاه المحافظ في شعرهم، وكانت قصائدهم تبدأ بمقدّمات افتتاحيّة، تمثّلت بمقدّمات غزليّة أو طلليّة...وغيرها، وشرح ابن قتيبة هذا المنهج بقوله:((وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أنّ مقصّد القصيد إنّما ابتدأ فيه بذكر الديار والدّمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الرّبع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظّعن على خلاف ما عليه نازلة المدر؛ لانتقالهم عن ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ، وتتبّعهم مساقط الغيث حيث كان)) (الدينوري، ١٤٢٣هـــ:٧٥-٧٦)، وأكثر قصائد شعراء البربر العربي كانت مقدّماتها غزليّة، لكنّ نسبة هذا الاتجاه قليله مقارنةً بالاتجاه الآخر، مثال ذلك:

قول أحمد بن الرضي بن عثمان المكناسي مادحاً مخدومه السلطان العظيم المقدار سيدي محمَّد بن عبد الله برد الله ضريحه، بقصيدة بلغت (٣٢ بيتاً)، يبدأ بمقدّمة غزليّة (١٨ بيتاً)، يصوّر فيها غرامه وشوقه، وقلبه المضطرب، وجمال المحبوبة وحسنها، ويتساءل كم محبّ مثله مقتول ومتعب؛ بسبب حبه المفرط لمحبوبته، إلى أن أصبح مرميًّا، ومتروكًا لا حاجة لأحد فيه، حتى أطراف أصابعه، لا تطاوعه وتعينه بسبب تعبه ومرضه من ذلك الحبّ، وسرعان ما يصف المحبوبة، ويسأل عن خدّها الذي يشبهه بالورد من شدّة حمرته، وجمال أسنانها التي شبّهها باللؤلؤ

من شدّة بياضها وانتظامها كأنّها عقد من الجمان، لذلك يسحره جمال ثغرها، وقوله في مقدّمته الغزليّة: (سيد،٢٠٢١: ١٥٩-١٦٠) (من الوافر)

غرامٌ لا يحيط بهِ بيانٌ   وشوقٌ ليسَ يشرحُهُ لسانُ
وقلبٌ لا يزايلُهُ اضطرابٌ   عظيم كيف يمسكُهُ العنانُ
لحى اللهُ المتيَّمَ لا يبالي   بما يلقَى وإن عَظُمَ الهوانُ
أطارحُهُ الهوى آثارَ قومٍ   عليها الحصرُ يقصُرُ والبيانُ
تقروا مسلكاً صعباً تساوى   بهَ البطلُ المسوَّدُ والجَبَانُ
ولكنْ لو لناظرِهم تبدَّى   سنَا الملكِ المؤيدِ ما استكانوا
مليكٌ في بساطِ الحسنِ شَدَّتْ   مناطقها لخدمتِهِ الحسانُ
بطاعتهِ قضوا لما رأوها   سبيلاً فيهِ رشدُهُم استبانوا
وقبلهم رأينا الشمسَ تعنو   لهُ وبذا لَعَمرُكَ ما تهانُ
تقبِّلُ أخْمَصَيْهِ لَدَى شروقٍ   وإن غُرُبَتْ كما شَهِدِ العيانُ
بديعُ الحسنِ مِنْ لحظيكَ هل لي   إذا سدَّدْتَ أسهمها أمانُ
أعارتْ أعيناً حورَا وثارَتْ   بصارمِها يحدِّدُهُ سنانُ
فكم مثلي صريعُ هوًى لديها   طريحاً لا يطاوعُهُ بنانُ
أخدُّكَ ما أرى أم غضٌّ وردٍ   وثغرُكَ ما تنظَّم أم جمانُ
كأنَّ سناهُ بالآجالِ يقضي   لبارق مبسميكَ بهِ اقترانُ
تعالى اللهُ حتَّى البرقُ يُهدِي   لمكرٍ لاَ تُمَاكِره القيانُ
يؤمِّلُ أنْ يخادِعَهُ عسى أن   بضوءٍ مِنْ ثناياهُ يعانُ
ولو أبدَى قوامُكَ بعضَ لينٍ   لسارَعَ بَالسجودِ إليه بانُ

ثم يمدحه بهذه الأبيات، التي يجسّد فيها صور الممدوح التي لا يستطع أي لسان أن يصفها، لما يمتلكه من صفات عظيمة وكثيرة تمثّلت بجليل الأفعال وكرم الأخلاق والشجاعة، وأسعد الزمان كلّ من جالسك واقترب منك، حتّى أهل الصليب إذا رأوا الممدوح وسمعوا بخصاله يدينون بدينه: (سيد،٢٠٢١: ١٦٠) (من الوافر)

بلى فِي كلِّ عضوٍ منكَ معنًى   تَنَزَّهَ أن يكفِّيهِ لسانُ
وما ظنّي (وبعضُ الظنِّ إثمٌ)   على الدنيا تجودُ بكَ الجنانُ

متـــى يـــا مـــنْ أنـــالَ البـــدرَ حســـنًا | بقـــربٍ منـــك يســـعدني الزمـــانُ؟
رعـــاك اللهُ مِـــنْ زمـــن تقضَّـــى | وغصـــنُ الوصـــلِ للوجـــه افتنـــانُ
بربـــعٍ كنـــتُ آلفُـــهُ رياضـــاً | وبعـــدَكَ مـــا بـــهِ قمـــري يـــزانُ
فـــلا صـــحبتْ ريـــاحُ الـــيمنِ ركبـــاً | بنـــورِ ســـناكَ عـــن عينَّـــي رانُ
أمَـــا علمـــوا بـــأنَّ الـــدهرَ حـــقٌ | عليـــهِ كمـــا يُـــدينُ فتًـــى يـــدانُ؟
مطايـــا الشـــوق أتـــبَعُهُم كـــأنِّي | أســـايرُهُم بـــذاتي حيـــثُ كـــانوا
لِمَـــنْ أشـــكو ضـــنًى يعتـــادُ جســـمي | ولا أشـــكو إذا نـــابَ امتحـــانُ؟
معـــاذَ اللهَ أنْ أســـلُو بشـــيءٍ | ســـواكَ ولا تنسِّـــيهِ دِنَـــانُ
فكـــم أودعتُـــهُ صـــدراً فســـيحا | عســـى أن لا يبـــينَ لَـــهُ عِيـــانُ
قســـمتُ العمـــرَ أجـــزاءً لعلِّـــي | علـــى حمـــلِ الغـــرام بـــهِ أُعـــانُ
أرجِّـــي الوصـــلَ أحيانـــاً وحينـــاً | أُشخِّصُـــهُ فُيعرونـــي افتنـــانُ
ولـــو أهـــلُ الصـــليبِ رأوْهُ يُومـــاً | علـــى قـــدرٍ بـــدينِ هُـــدَاهُ دُانـــوا

أمّا أصحاب الاتجاه الجديد أو المحدث فينبذون مقدّمات القصيدة العربية القديمة؛ والسبب في ذلك تطوّر الحياة واختلاف أولويات كلّ عصر من العصور، فالشعر بصورة عامة يدعو إلى صدق التجربة الشعريّة، وهذا الصدق هو الذي جعل المحدثين يقومون بثورة على القصيدة الجاهلية، وسار شعراء البربر العربي على هذا الاتجاه، وكتبوا أشعاراً من دون مقدّمات افتتاحيّة (الكفراوي، ١٩٥٨: ٧٢-٧٣)، وهو الأكثر في شعر شعراء البربر العربي ومثال ذلك قول عباس بن ناصح المصمودي(ت بعد٢٣٠هـ) في مدح أبي العاصي الحكم بن هشام الأموي في الأندلس، يصوّر الزمان في نكد ويمرّ الناس بأيام عسيرة قبل حكم الحكم بن هشام، لكن سرعان ما طلع الزمان من أزمته وعسره حينما تسلّم ابن هشام الحكم في الأندلس: (زكي، ٢٠١١: ١٠٧) (من الكامل)

نَكِـــدَ الزّمـــانُ فأمّنـــتْ أيّامُـــهُ | مِـــن أن يكـــونَ بعصـــرهِ عُســـرُ
طَلَـــعَ الزّمـــانُ بأزمـــةٍ فجـــلا لـــهُ | تلـــكَ الكريهـــةَ جـــودُهُ الغَمْـــرُ

ولبكر بن حماد التاهرتي الزناتي(ت٢٩٦هـ) مقطوعة من (٦ أبيات) في مدح الأمير بن القاسم ابن إدريس صاحب مدينة كرت، بصورة الرجل ذي السماحة والمروءة الشجاع

الكريم، حتى تفاخرت القبائل التي تنتمي إليه لشجاعته وكرمه وسموّ أخلاقه، إذ يقول في مطلعها: (شاوش، ١٩٦٦: ٧٢-٧٣) (من الكامل)

إنَّ السَّـــماحَةَ وَالمُـــرُوءَةَ والنَــدَى   جُمِعُـوا لأَحَمَــدَ مِــنْ بَنِــي القَاسِــمِ

وَإذَا تَفَــاخَرَتِ القَبَائِـــل وَانتَمَــتْ   فـــافخَر بِفَضْـــلِ محَمَّـــدِ وبِفَــاطِمِ

وأنشد عباس بن فرناس التاكرني(ت٣٠٨هـ) يمدح الأمير محمد بن عبد الرحمن؛ بأنَّه محبوب عند الناس؛ لأنَّ في وجهه الخير والمحبة، يقول: (جرار، ١٩٩٠: ١٥٧، وجرار، ١٩٩٠: ٩٩) (من الطويل)

رأيـــتُ أميـــر المـــؤمنين محمّـــداً   وفـــي وجهـــه بـــذر المحبّـــةِ يثْمِـــرُ

وقال أبو إسحاق الصنهاجي(ت٥٥٠هـ) حينما أسر فخاطب عبد الملك بن سعيد، بعد أن شكا إليه أسره، إذ صوّره بصورة الكريم الذي لا يبخل على من طلب العون منه،كيف وهو أسير؟ ويرتجي من الأمير الكريم أن يفكّه من أسره، إذ يقول: (سيد،٢٠٢١: ١٢٧)(من السريع)

أصــبحت فــي بِسْــقايةٍ مُسْــلَماً   إلــى الأَعــادي لا أرى مُسْــلِما

مُكَلَّفــاً مــا لــيس فــي طــاقتي   مُصَــفَّدًا مُنْتَهــرًا مُرْغَمــا

أُطلــب بالخِدمــة، وا حســرتي!   وحــالتي تقضــي بــأَن أُخْــدَما

(فهــل كــريمٌ يُرْتجــى للأَســير   يفكُّــه، أَكْــرم بــه مُنْتَمــى)

فاجتهد في فدائه، ولم يمرّ شهر إلّا وقد تخلّص من أسره، واستقرّ لديه، فكان طليق آل سعيد، وفيهم يقول: (سيد،٢٠٢١: ١٢٧)   (من الطويل)

وجــدْنا ســعيداً مُنْجِبــاً خيــر عُصْــبة   هــم فــي بنــي أعْصــارهم كالمواســم

مشــنّفة أســماعهم بمــدائح   مُسَــوَّرة أيمــانهم بالصَّــوارم

فكم لهــم فــي الحــرب مــن فضــل نــاثرٍ   وكــم لهــم فــي السَّــلم مــن فضــل نــاظم

ومن القصائد التي تبدأ من دون مقدّمات سواء كانت غزليّة أم وصفيّة، قال ابن الزنباع قصيدة بلغت (٢٠ بيتاً) كتبها في مدح الوزير والقائد المحنك في انتصاره ببعض الفتوح، فأول المعاني التي يضفيها الشاعر على الممدوح هي الشجاعة والقوة والفروسية التي زرعت الرعب في قلوب الأعداء فجعلتهم في رعب وخوف، حتى أنّهم لا يستطيعون الاختباء في النفق، ولا الصعود على الجبل، وقد تقاسموا الدروع من شدّة الذعر والرعب، ليسلموا من حرارة الرماح

والنبال؛ لكنّ دروعهم لا تحميهم بل تزيد ثقلهم، فبالغ الشاعر في تصويرهم، فشبّههم عند هربهم بولد الناقة الذي ينفصل عن أمه ويرتطم في الطين الرقيق الذي لا يستطع الخروج منه، فهم هكذا في الحرب ينهزمون خوفاً منه ومن جيشه، فهو القائد الأوحد الذي لا يوجد له شبيه بشجاعته، وقوّته من فتح بعض البلدان التي أنارت وارتوت بذلك الفتح، إذ قال:(سيد،١٣٦:٢٠٢١) (من المنسرح)

كـــذا تُصـــانُ السُّـــيوفُ فـــي الخِلَـــلِ ويَفْخَـــرُ الحـــظُّ بالْقَنَـــا الـــذُّبُلِ
وتُكْـــرَمُ الخَيْـــلُ فـــي مَرَابِطِهـــا بـــرّ الْفَتَـــاهِ الْعَـــرُوبِ بالرَّجُـــلِ
ويُعْطَـــفُ النَّبْـــعُ كالحواجـــبِ أَوْ أحْنَـــى وتَهْمـــي السِّـــهام كالْمُقَـــلِ
ويُـــوثَرُ النَّثْـــرَةَ الْكَمِـــيُّ إذا خُيِّـــرَ بَـــيْنَ الـــدُّروعِ والحُلَـــلِ
فَـــتْحٌ أَنـــارَتْ لَـــهُ الْـــبلادُ كمـــا أشْـــرَفَتِ الْمُقْرَبـــاتُ لِلْنَّهـــلِ
هُـــدَّتْ لـــه الـــرومُ هَـــدَّةً مَـــلأَتْ قُلـــوبَ أَبْطـــالِهِمْ مِـــنَ الوَجَـــلِ
فمـــا أَطـــاقوا الْوُلـــوجَ فـــي نَفَـــقٍ ومـــا أَطـــاقوا الصُّـــعُودَ فـــي جَبَـــلِ
....
تغامســـوا فـــي الـــدُّروع زَاخـــرةً كَـــيْ يَسْـــلموا مِـــنْ حَـــرارةِ الأَسَـــلِ
فمـــا أَفَـــادَتْهُمُ الـــدُّروعُ سِـــوَى الْنُّـــــنُقْلَةِ مِـــنْ خِفَّـــةٍ إلـــى ثِقَـــلِ
كـــأَنَّهُمْ والرِّمـــاحُ تَحْفِـــزُهُمْ جَـــرْيَ فِصَـــالٍ سَـــلَكْنَ فـــي وَحَـــلِ
جـــاءُوا بهـــا سُـــبَّغَاً مُضَـــاعَفَةً قـــد أخلصـــت بالحديـــد والعمـــلِ
مثْـــلَ عُيـــونِ الـــدُّبا فَصَـــيَّرها دَمٌ وطَعْـــنٌ كـــأَعْيُنِ الْحَجَـــلِ
هُنَـــاك سَـــلْ بـــالوزيرِ مَـــنْ شَـــهِدَ الْــــحَرْبَ، وإنْ كُنْـــتَ شـــاهداً فَقُـــلِ
ولا تَخَـــفْ إنْ حَكَيْـــتَ مُغْرِبَـــةً عنـــه مقـــام المُكَـــذِّب الخَطَـــلِ
فإنَّـــهُ الأَوْحَـــدُ الَّـــذي تَـــرَكَ الْـــدَهْـــرَ بِـــلاَ مُشْـــبهٍ ولا مَثَـــلِ
حَـــدِّث بمـــا شِـــئْتَ عَنْـــهُ مِـــنْ حَسَـــنٍ وعَظِّـــمِ الأَمْـــرَ ثُـــمَّ لا تَسَـــلِ
فَفَضْـــلُهُ يَبْهَـــرُ الأَهِلَّـــةَ فـــي سُـــعُودِهَا والشُـــمُوسَ فـــي الحَمَـــلِ

وكتـــب أبو الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن البربري يومـــاً إلى السلطـــان يعقـــوب المنصـــور يمدحـــه، ويصفه بالصادق المسامح الكريم المعطاء الذي يسرّ ويفرح ويستبشر كلّ من طلب العون منه؛ لأنّه لا يرد أحداً، بقـوله: (سيد،٢٠٢١: ٣١٧) (من المتقارب)

وُجُــــوهُ الأمـــــاني بُكـــمْ مُسْـــفِرهْ   وَضـــــاحِكةٌ لِـــــيَ مُستَبْشِـــــرَهْ

ولِـــــي أمَـــــلٌ فِـــــيكمُ صـــــادِقٌ   قريـــــبٌ عَســـــى اللهُ قـــــدْ يَسَّـــــرهْ

علـــــيَّ دُيُـــــونٌ وَتَصْـــــحيفُها   وَعنـــــدَكُمُ الجـــــودُ وَالمغفْـــــرَهْ

إنّ شعر المدح يأخذ على عاتقه ترسيخ فضائل الممدوح المتمثله بالشجاعة، والسماحة، والقوة، والفروسية، والكرم، وغيرها، وهذه الفضائل باقية وراسخة في الشعر العربي إلى عصرنا الحاضر، لذلك نجد شعر المدح عند شعراء البربر كان استمراراً لنتاج الشعر العربي في هذا الغرض.

٣-مدح العلماء والأدباء والأقرباء

كان الشعراء كعادتهم يمدحون الأمراء والملوك بإظهار صفاتهم الأصيلة من مروءة وشجاعة وأخلاق حميدة، والحديث عن انتصاراتهم ودورهم في حماية الإسلام ونشره، وكذلك كانوا يمدحون العلماء والقضاة المعروفين بعلمهم أو بأدبهم، فأبو حيان(٧٤٥هـ) كان يقدّر أهل العلم والعلماء تقديراً عظيماً، وصورة المدح عنده كانت تركّز على علم الشخص وكتبه، وما ينفع به الناس، ومن قصائده التي تبدأ بالهجاء تتراوح هذه المقدمة ب(١٩ بيتاً)، وجاءت قصيدته في (٣٤ بيتاً)، إذ يقول في مطلعها: (مطلوب، والحديثي، ١٩٦٩: ١٣٨)   (من الكامل)

يقـــول علـــى رأسِ الجمـــاهير كلهـــم   وقد أَوْهَـــم الجهـــالَ أَنْ صـــار ناصـــحا

بـــأنَّ ولـــيَّ اللهِ مَـــنْ كـــانَ فاســـقاً   ومن كان عـــن ديـــن الشـــريعةِ نازحـــا

وبعدها ينتقل إلى مدح محمد بن عبد الرحمن جلال الدين القزويني قاضي القضاة في عصره، ويشير الشاعر في هذه الأبيات إلى صفات الممدوح الحسنة، منها الشجاعة بنصر دين النبي محمد(صلّى الله عليه وآله) ونشر الإسلام بعلمهِ وأدبه، إذ يقول: (مطلوب، والحديثي، ١٩٦٩: ١٤٠)   (من الكامل)

وإنَّ جـــــلالَ الـــــديِّنِ قاضِـــــي قُضـــــاتِنا   أقـــامَ

وقـــــام بنصـــــر الـــــديِّن دَيْـــــنِ مُحمَـــــد   وأخمـ

علـــــى حـــــينِ لَـــــمْ يَـــــنَهْض إلـــــى نصـــــره امُـــــرؤ   سواهُ

لقـــــد حـــــاقَ باللبـــــانِ سُـــــوء اعتقـــــادِهِ   وقُامَ

أقـــــرَّ بكُفـــــرٍ ثُمَّ أظهـــــرَ   مَخـــا

وقال أبو فارس عبد العزيز (ت٧٩٩هـ) يمدح أبا مالك في نصّ على الاتجاه القديم (٩ أبيات)، يبدأه بمقدّمة غزليّة بـ(٦ أبيات)، يصوّر فيها الحنين إلى الحبيبة والشوق إليها، جاء فيها: (سيد،٢٠٢١: ٢٧١) (من الطويل)

أشـاقتْكَ أطـلالُ الـديارِ الطواسِـمُ — بقلبِـكَ حيـرانٌ ودمعُـكَ سـاجمُ؟

وقعـت عليهـا بعـدَ بُعـدِ أنيسِـها — وصـبُرِكَ قـد ولَّـى ووجـدُكَ لازمُ

بعيـداً عـن الأوطـانِ تسـلى بأنَّهـا — تُهـيِّجُ أشـواق المحـبِّ المعـالمُ

تحنُّ إلـى سـلمى ومَـنْ سَـكَنَ الحِمَـى — وأيـنَ مِـنْ المشـتاقِ تلـكَ النـواعمُ؟

إليـكَ بـأنّي لسـتُ مِمَّـنْ تشـوقُهُ — معاهـدَ سـلمى أو سَـبَتْهُ المباسـمُ

إذا هامـتِ العشَّـاقُ يومـاً بكاعـبٍ — فقدْ بـاتَ فـي الإدلاجِ فِـي البيـدِ هـائمُ

ثم يمدح الممدوح بـ(٣ أبيات)؛ لأنّ المدح لديه هو الغاية والوسيلة، لذلك نجد الشاعر ينتقل بمعانٍ مختلفة تصبّ في قصده، فتبدأ قصيدته بمقدّمة غزليّة طويلة، ثم يمدح الممدوح وهذا هو الهدف المقصود من قصيدته بأبيات أقلّ من المقدّمة، إذ يصوّر فيها شجاعة الممدوح فهو ليث الحروب، ومذلّ الأعداء وهازمهم، يقول فيها: (سيد،٢٠٢١: ٢٧١) (من الطويل)

لألقـى مليـكَ الأرض وابـنَ مليكِهـا — أبـا مالـكٍ ليـثُ الحـروبِ العـوازمُ

مُـذلُّ الأعـادي فِـي سـماءِ عجاجـةٍ — بهـا البـيضُ بـرقٌ والـدماءُ غمـائمُ

رواعـدُهَا صـوتُ الكُمَـاةِ وشـهبُهَا — دراريـكَ هنـدٍ تشـتهيها الصـوارمُ

وقول عبد القادر بن العربي ، المعروف بابن شقرون المكناسي مخاطباً ابن الطيب ومادحاً له، في بعض الأبيات، التي تخلو من المقدمات، إذ يحيّي الشاعر ممدوحه ويدعو له بالخير الوفير والكثير، الذي مثله بالسحابة الممطرة، حتى يتباهى بشعره الذي شبّهه بالسحر، وكلّما تسمعه الأذن تطرب له من شدّة جماله وسحره، وقد مزج المدح بالطبيعة، إذ شبّه الممدوح بالشمس التي أشرقت بفاس، حتى أعجب لمطلع هذه الشمس من المغرب؛ لكون شروقها من الشرق، وكأنّها آية، وقد بالغ الشاعر في صفات الممدوح وجعله آية لعظمته وقدسيّته، إذ يقول: (سيد،٢٠٢١: ٢٧٦) (من الكامل)

حيّـاكَ ربُّ العـرشِ يـا ابـنَ الطيِّـبِ — وسـقاكَ منهمـرُ الغمـامِ الصَّـيِّبِ

يــا مـــن نفـــائسُ شـــعرِهِ بـــل ســـحرِهِ   نســـختْ نفـــائسَ كـــلِّ قـــولٍ مطـــربِ
شـــــمسٌ لِمطلعِهَـــــا بفـــــاسٍ آيـــــةٌ   فاعجِـــبْ لمطلـــعِ مشـــرقٍ فِـــي مغـــربِ

٤- مدح المدن

وهذا النوع من المدح قليل مقارنة بمدح الحكّام والعلماء والمدح النبوي وغيره، ومثال ذلك، قول التهامي بن الطيب أمغار المكناسي من مقصورة تقصر عن الإتيان بمثلها نبغاء فحول الأقران، وقد قدّمناها بتمامها فيما قيل في مدح مدينة مكناسة، بقصيدة (٧٣ بيتاً)، يقول فيها: (سيد،٢٢٩:٢٠٢١-٢٣٠) (من الرجز)

للهُ مـــا أبهـــى عمـــائرَ الحِمَـــى   معـــالم الأنـــسِ مطـــالعُ المُنَـــى
معاهـــداً مـــا برحـــتْ محفوفـــةً   بظـــلِّ أمـــنٍ مِـــنْ فـــراديسِ الهنـــا
قلبـــي إليهـــا قـــد صـــبا كيـــفَ وَهَـــى   أولَ أرضٍ مسَّـــــني منهـــــا الثـــــرَا
مكناســـــةٌ قطـــــبُ الـــــبلادِ كلِّهـــــا   وشمسُـــــها التـــــي إليهـــــا المنتهـــــى
أعظِـمْ بهـا مِـنْ حضـرةٍ عـمَّ الـورَى   مـــددها ونفعُهـــا طـــولَ المـــدا
فيـــا لهـــا مِـــنْ بَلَـــدٍ يجلـــو الصـــدَى   عـــنِ القلـــوبِ المـــاءُ منهـــا والهـــوى
أبـــو العمـــائرِ ســـقاها سلســـلاً   عـــذباً معينـــاً ســـالماً مِـــنَ القـــذى
وطـــودُ زرهـــونَ بقربِهـــا زهَـــا   علـــى الجبـــالِ كلِّهـــا وقـــد سَـــمَا
فكـــلُّ مَـــنْ أبصـــرَ معنـــى لفظِهـــا   يـــودُّ لـــو أنَّـــه فيهـــا قَـــدْ ثَـــوَى
لا تســـمعَنْ قـــولَ جحـــودٍ لـــم يجـــدْ   إلـــى ســـماءِ مجـــدِها مِـــنْ مرتقـــى
وَدَّتْ بقـــاعَ الأرضِ طـــرًّا أن تـــرى   مـــا خصَّصَـــتْ مِـــنَ الســـناءِ والســـنا
أشـــرقتِ الـــدنيا بهـــا إذ أحـــدَقَتْ   بهـــا قصـــورٌ وســـطَ روضٍ مشـــتها
مـــا أعـــينٌ رأَتْ ولا قَـــدْ ســـمِعَتْ   أذنٌ ولا خَطَـــــر قـــــطٌّ بحشَـــــا
رَفَـــعَ ســـمكها شـــريفٌ مصـــطفى   مِـــنْ آلِ أفضـــلِ العبـــادِ المصـــطفى
مشـــرفةٌ علـــى حِمَـــى حمريـــةٍ   ذاتِ المعـــاني والحُلِـــيِّ والحُـــلا
تـــاللهِ مـــا أبصـــرَ طَـــرْفٌ مثلَهـــا   فـــي الكـــونِ طـــرّاً قـــطُّ منـــذُ نَشَـــا
يكـــادُ زيتُهـــا يضـــئُ فـــي الـــدجى   مِـــنْ قبـــلِ أن يمسَّـــهُ جمـــرُ الغَضَـــا

ويمدح عبد القادر المكناسي مدينته مكناسة، ويصف جمال طبيعتها وحسنها، والنظر لجمالها يحيي فؤاد كلّ عاشق حزين، حتى أنّه شبّهها بملك في عرشه، وعذراء جميلة محروسة من أعين

الناظرين، وشبّه مياهها بالكوثر والمعين، وهواؤها يشرح صدر المكلوم الحزين، إذ يقول في مقطوعته: (سيد،٢٠٢١: ٢٧٥) (من الكامل)

يـــــا نـــــاظرا مكناســـــة الزيتـــــونِ	**ذات البهـــــا والحســـــنِ والتحســـــينِ**
نـــــزِّهْ لِحَاظَـــكَ فـــي أجنّتِهـــا التـــي	**تَحيـــي فـــؤادَ العاشـــق المحـــزونِ**
وانظـــرْ إلـــى أســـوارهِا وبروجِهـــا	**قـــدْ أسســـتْ للفخـــرِ والتحصـــينِ**
فكأنَّهـــا ملـــكٌ بـــدا فِـــي عرشِـــهِ	**ليـــرى دفـــاعَ الهـــاجمِ المفتـــونِ**
أو أنَّهـــا عـــذراءُ حســـنٍ أحرسَـــتْ	**بجبالهـــا عَـــنْ نـــاظرٍ بعيـــونِ**
أحسِـــنْ بهـــا مِـــنْ بلـــدةٍ فمياهُهَـــا	**قـــدْ أجريـــتْ مِـــنْ كـــوثرٍ ومعـــينِ**
يكفيـــكَ فيهـــا شـــرحُها بهوائِهـــا	**صـــدرٌ لمكلـــومِ الحشـــا بعيـــونِ**

إنّ ظهور مدح المدن وبيان محاسنها، وتعداد فضائلها ومآثرها من الموضوعات الجديدة التي ظهرت في العصر العباسي؛ بسبب تغيّر البيئة، وبناء القصور، وظهور هذا النوع من الشعر عند شعراء البربر، يدلّ على تأثرهم بالشعر العربي في كل عصوره، وليس في الشعر الجاهلي فحسب، وهناك سبب آخر وهو تشابه البيئة من حيث مظاهر حضارتها وعمرانها، فضلًا عن روعة طبيعة الأندلس والمغرب وسحرها، وتنوّع مظاهرها؛ جعل الشعراء يمدحون مدنهم ويذكرون محاسنها وجمال طبيعتها، ووصف مناظرها الخلابة.

الخاتمة ونتائج البحث

وفي نهاية حديثنا عن شعر المديح في شعر البربر العربي في المغرب والأندلس، نخلص إلى خاتمة بأهمّ النتائج التي توصلّنا إليها، وهي كما يأتي:

- ❖ جاء شعر المدريح لدى شعراء البربر العربي في أغلبه على شكل قصائد طوال، وفي أقلّه على شكل مقطوعات.
- ❖ كان المديح من أهمّ الأغراض التي نظم فيها شعراء البربر، وقد ساروا فيه على طريقة الشعراء العرب القدامى، وأشادوا في مدح الملوك والحكّام بذكر الصفات الحميدة، مثل: العدل، والكرم والشجاعة، وغيرها من الصفات التي تغنّى بها الشعراء.

❖ شاع لديهم شعر المولديّات، وهو فنّ من فنون الشعر التي تعبّر عن العواطف الدينيّة ومن الأدب الرفيع الذي يصدر من قلوب صادقة ومخلصة؛ لأنّ هذا الفنّ يصف شخصية الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلم)التي اجتذبت قلوب المسلمين وغيرهم ليمدحوه لعظمتها وسموّها.

❖ ارتبط هذا الغرض بتاريخ بداية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف الذي شاع في المشرق ثم انتقل إلى بلاد المغرب والأندلس، حتّى ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالاحتفالات الرسميّة التي كان ينظمها الملوك في كلّ سنة بمناسبة ليلة المولد النبوي الشريف الذي ابتدأ في أوائل القرن السابع الهجري، حتى أصبح في القرن الثامن الهجري عيداً رسمياً، فكانت قصيدة المديح النَّبوي ظاهرة أدبية متميزة شكلاً ومضموناً عرفت بها الأندلس والمغرب الإسلامي؛ لأنّ شعرهم صادق لا يخالطه رياء ولا يشوبه ريب.

❖ ظهرت موضوعات أخرى في هذا الغرض فضلًا عن المديح النبوي، ومنها: مدح الحكّام، ومدح العلماء والأدباء والأقرباء، ومدح المدن.

قائمة المصادر والمراجع:

أولًا : القرآن الكريم

ثانيًا: المصادر والمراجع:

❖ بدوي، أحمد أحمد: **أسس النقد الأدبي عند العرب**، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط)، ١٩٩٦م.

❖ الدهان، سامي: **المديح**، دار المعارف– مصر ، (د.ط)،١٩٦٨م.

❖ الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ): **الشعر والشعراء**، دار الحديث، القاهرة، (د.ط)، ١٤٢٣ هـ.

❖ الزمخشري(ت٥٣٨هـ) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي: **أساس البلاغة**، دار الفكر، (د.ط) ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م.

❖ السنودي، حسن: **تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي من عصر الإسلام الأول إلى عصر فاروق الأول**، مطبعة الاستقامة– القاهرة، ط١، ١٩٤٨م.

❖ شاوش، محمد بن رمضان: **الدرّ الوقّاد من شعر بكر بن حمّاد التاهرتي، من الأدب العربي الجزائري**– طبع بالمطبعة العلوية بمستغانم، ط١، ١٩٦٦م.

❖ عمران، فاطمة: **المدائح النبوية في الشعر الأندلسي**، المجمع العلمي لأهل البيت (عليهم السلام)،ط١، ١٤٢٨هـ.

❖ الكفراوي، محمد عبد العزيز: **الشعر العربي بين الجُمُود والتطور**، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)، ١٩٥٨م.

❖ مبارك، زكي: **المدائح النبوية في الأدب العربي**، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

❖ مطلوب، أحمد، والحديثي، خديجة: **ديوان أبي حيان الأندلسي**، مطبعة العاني-بغداد، ط١، ١٩٦٩م.

❖ مكي، محمود علي: **المدائح النبوية**، مكتبة لبنان-الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان-مصر، ط١٩٩١،١م.

ثالثًا: الأطاريح والرسائل الجامعية:

❖ سيد، إخلاص خالد عبد: **شعر البربر العربي في المغرب والأندلس** (جمع ودراسة): (أطروحة دكتوراه)، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٢١م.

رابعًا: الدوريات:

❖ جرار، صلاح محمد: **ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس**، مجلة مجمع اللغة العربية الاردني-الأردن، مجلد١٤، عدد٣٩، ١٩٩٠م.

❖ جرار، صلاح: عباس بن فرناس شاعراً، **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني** – الأردن، ع ٣٨، يناير ١٩٩٠.

❖ زكي، علاء الدين: عباس بن ناصح الثقفي الجزيري(ت بعد ٢٣٠هـــ) **حياته وشعره**، مجلة أفكار، ع ٢٧٤، ١ نوفمبر ٢٠١١.